

اللغة العربية

على المحلح

الأستاذ خليل العنداوي

حلب (سوريا)

ويبدو أن الغزو نفسه يمهّد لانتشار لغة الغازي،
أما تقريبا من الغازي ، وأما طلبا لاتمام النقص الذي
تشعر به ، والأفان هنالك لغات أخرى واسعة ، لا
تقل طواعية ومرونة وغنى عن اللغة الانجليزية ، ولكن
لم يرافقتها غزو واسع ، يمكن لها ما مكنه الغزو
لغة الانجليزية .

ولذلك تحيا اللغة العربية الآن في حيز ضيق، هو
رقعة العالم العربي ، وهذه الحياة نفسها غير موحدة
باصطلاحاتها ، ولا مستقرة في اشتقاقاتها ، لاختلاف
هذا العالم في وجهات ثقافته .

ولعل من العوامل البارزة في استقرار اللغات
الاجنبية أنها تصدر في اشتقاقها من منبع واحد ، هو
اللغة اللاتينية ، واليونانية القديمة ، وهذا المنبع
وحد مصطلحاتها العلمية والفلسفية ، بينما اللغة
العربية قل اتصالها بهذا المنبع ، فلذلك جسامت
المشكلة وتعمدت من نتيجة هذا الانتطاع .

* * *

والذي يتأمل تطور اللغة العربية يجد أنه
تطور لا يتخطى الشكلية ، والدوران على النفس ،
فأما البناء فهو باق لا يتبدل ، وما أشبهه ببناء عتيق ،
قد تأكلت حجارته ، شأن آثارنا القديمة الشاخصة ،
وغطاها طحلب التقدم . فالقواعد لا تزال واحدة ، لم
يجرؤ احد أن يخفف ، أو يبسر من قيودها ، أو يقلل من
شواذها المتقلبة . ولم يبق منها الا عملية الاشتقاق ،
وهي عملية ناجعة ، لو وجدت من يستغلها ،
ويفيد منها . ولكن هذه العملية ليست موحدة في
الانطار ، اذ نرى كل مجمع لغوي يشق وفق هواه
واجتهاده ، ثم لا يأخذ أحد بهذا الاشتقاق . ولا تنكر
وزارة من وزارات التعليم والثقافة في تطبيق هذه
المشتقات ، واذاعتها في الكتب المدرسية التي يأخذ بها
الطلاب .

ولذلك: اذا اردنا خيرا وحياة لهذه المصطلحات،
يجب :

حقا لكل لغة مشاكلها ، ومن يطلع على مسيرة
اللغات في العالم ير أن هناك فئة من اللغات تحيا حياة
عامة ، مناسبة ، وفئة منها تحيا في حيز ضيق ،
يتناول اصحاب هذه اللغة ، واهلها .

وهذا ينطبق على اللغة العربية انطباقه على
بقية اللغات . واللغة العربية اليوم تحيا في هذا
الجزء الضيق ، واذا ابتعدت قليلا عنه كان انفراجها
في دائرة الدراسات التاريخية والاجتماعية وتقليل منه
في الدراسات العلمية ، والمصطلحات التقنية .

وقد مرت اللغة العربية بدور ، كانت فيه لغة
انسانية ، حين تجاوزت التخوم العربية ، وأصبح
أدبها والعلم فيها ذائعا في الاقطار التي مسحها
الفتح العربي أولا ، والدين ثانيا .

والاسلام ، بطبيعته ، مرتبط باللغة العربية ،
ولا غنى للمسلم منها كان اصله ومنشؤه عن المامه
باللغة العربية سواء كان قارنا للقرآن في تادية شعائر
الدين ، أو متفهما لاصوله . وهذه مزية لم تحظ بها
لغة أخرى في العالم . وكان من وراء ذلك أن عم نفوذ
اللغة العربية وأسهم في التأليف بها جماعات عربية ،
وغير عربية .

ولما انحسر النفوذ العربي عن هذه الاقطار
انحسر نفوذ اللغة فيها ، كوسيلة للتعبير ، والتأليف .
ولم يبق منها الا رمزها المتصل بالدين .

وقد ينطبق هذا المثل على لغة ، تعد أكثر اللغات
انتشارا اليوم ، هي اللغة الانجليزية ، فان تغفل
الاحتلال الانجليزي في الاقطار الدانية والنائية ، مهد
لهذه اللغة أن تنتشر وتتوسع ، وتقدم اللغة العلمية
بها على الاقل . وقد ظل تأثير هذه اللغة في الاوساط
العلمية والدراسية بهذه الاقطار ، قائما ، حتى بعد
انحصار الاحتلال ، لان هذه الاقطار المتخلفة وجدت
فراغا كبيرا ، وجديا في لغتها القومية وثقافتها ،
فظلت مثابرة على تبني اللغة الانجليزية في مدارسها
العالية ، وجامعاتها . ولا ندري : الى متى تدوم هذه
التبعية ؟

أولا : العمل على تهذيب القواعد وتخفيف أعبائها .

ثانيا : توحيد جهات الاشتقاق بما يجري مع انطبع والعصر والحاجة .

ثالثا : إذاعة هذه المصطلحات المشتقة ، بكل وسيلة فعالة ، في أبناء الجيل الآتي ،

* * *

وأما الذين يزعمون أن اللغة العربية عقيمة ، لا تستجيب إلى الحياة الحديثة ، تعصبا أو لهوى خبيث فيهم ، فقد فاتهم أن اللغة العربية ، بطبيعتها ، لغة مرنة ، غنية ، يدل على ذلك مفرداتها الدقيقة ، وقد امتحنت - أيام النهضة العلمية في العصور العباسية - وثبتت لهذا الامتحان ، وعيرت أحسن تعبير عن كل خاطرة ، وتجربة ، ومعنى هذا أنها صالحة للتدريس الجامعي بأوسع ما يريد منها هذا التدريس ، ومستعدة للوفاء بالتزامات التعبير عن كل شيء .

وقد اراد الشاعر - حافظ إبراهيم - مرة أن ينبري لهذه المشكلة ، ويمالجها بروح شعرية ، فوضع تصديده المشهورة ، عن لسان اللغة العربية ، في الشكوى من إهمال أبنائها ، وما قاله :

أيطربكم من جانب الغرب ناعب

ينادي بوادي في ربيع حياتي ؟
وسعت كتاب الله لفظا وغاية

وما ضقت عن أي بها ، وعظمت
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ؟

وتسجيل أسماء لمخترعات
أتوا أهلهم بالمعجزات تفننا

فيا ليتكم تأتون بالكلمات
فالمشكلة التي عاناها الشاعر منذ خمسين سنة ،

لا تزال هي مشكلتنا اليوم ، بل ربما زادت عليها صعوبة وتعقدا ، لأنها ليست بمشكلة العجبة التي امتدت زمننا إلى لغة المخاطبة ، بتأثير العوامل الغربية الزائفة التي ضعفت ، وكادت تضحل ، وإنما هي ، في الدرجة الأولى ، مشكلة استحداث اللغة العلمية التي تجاري النهضة العلمية الوثابة .

ومن هذه المشكلة مسألة إيجاد المفردات العلمية الدقيقة للمنجزات والمخترعات المستحدثة وبخاصة في علوم الطب والصيدلة والفيزياء والكيمياء والاجتماع.

واللغة العربية وقفت موقفا طبيعيا من هذه المستحدثات ، فقد رأيناها تعرب بعضها ، فتنجح في البعض ، وتخفق في البعض . فمثلا ، كلمة السيارة والظيارة والبناتف والمذياع كلمات موفقة سائرة ، وهناك كلمات أخرى كتبت ، ولم ينطق بها لعصرها ويعداها عن المرونة اللفظية ، والروح العلمية .

وان من الواجب على ذوي الاختصاص من علماء وفقهاء لغويين أن يتأملوا في جيراننا ، ممن حانهم كحالنا ، ومشكلتهم كمشكلتنا ، ولقمتهم عزيزة عليهم كما لقمتنا عزيزة علينا ، كيف قابلوا هذه المشكلة ، وحلوها .

ولكن جل ما في الأمر أن تقابل المشكلة بتجرد ، بدون تحيز ولا تعصب !

وفي الحق أن لكل لغة وجهين : وجهها الأدبي الخاص الذي لا تنفصل عنه ، وهذا له ميزاته الشخصية في التعبير والجاز والتشبيه ، ووجهها العلمي الذي أصبح ، بفضل اتصال أجزاء العالم ، بعضها ببعض وجهها عاما متحدا ، ونحن ، فيما نشق في هذا المجال نتكلف ما لا استطاع ، لأنه تسمية لأشياء لم نخلقتها . ولذلك ، كحل صحيح للمشكلة ، يجدر بنا أن نقتي على المصطلحات العلمية ، كما وردت بلغتها الأصلية . وهي - غالبا - مصطلحات تستخدمها كل لغة في العالم ، دون أن تجد في ذلك غضاظة على لغتها . واللغة العربية ذاتها فتحت صدرها أكثر من مرة ، لأمثال هذه المصطلحات ، وللألفاظ الغربية عنها ، في عصور نهضتها ، واحتضنتها وعربتتها .

وان في القرآن الكريم الذي انزل عربيا ، الكثير من هذه المفردات التي انتقلت إلى العربية من اللغات السريانية المجاورة لها .

هذا ويوفر علينا الزمن ، ويجنبنا الفوضى في التعبير ، ويجعلنا ذلك أقرب إلى التيار العلمي العالمي ، كما يجعل المختص منا أقرب إلى روح هذه الأشياء ، وأيسر اتصالا بمراجعها الغربية التي غدت جزءا لا يتجزأ من دراساتها العلمية .